فمن عفا وأصلح فأجره على الله

خميس النقيب

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 28/4/2016 ميلادي - 21/7/1437 هجري

الزيارات: 422051

فمن عفا وأصلح فأجره على الله

العفو شيمة الأقوياء، وخلُق الكرماء، وديدَن العظماء، أمَّا أن تعتدي على الآخرين فقد سمَّاه القرآن بَغيًا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: 39].

ومن أخلاق المسلمين أنَّهم غير مستسلمين، وليسوا ضعافًا، الله معهم، وهو ينصرهم، ومن صفات المؤمن أنه إذا أصابهُ بغيٌ ينتصر، وإذا كان ضعيفًا يقول: ربِّ إنِّي مَغلوب فانتَصِر؛ إمَّا أن تنتصِر أو تدعوَ الله عز وجل أن ينصرَك.

والانتصار هنا ردُّ البغي فقط، فلا يردُّ الصاعَ صاعين واللطمة لطمتين؛ كلَّا؛ وإنما يردُّ السيئةَ بمثلها أو يعفو ويصفح؛ ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: 40]؛ لا يحبُّ الباغين، ولا يحبُّ المعتدين، ولا يحب الظالمين، ولا يحبُّ الخانعين؛ وإنَّما يحبُّ الباحثين عن حقوقهم، المؤدِّين لواجبهم، العافين عمَّن أساء إليهم مع قدرتهم على الردِّ.

هناك مَن يقول:

- سأنكِّل به، سترى ما أفعله، يتوعَّد بالانتقام، سأمسحه من على وجه الأرض.

والبعض الآخر يقول:

- مَن ضربك على خدِّك الأيمن فأَدِر له الأيسر.

بينما يقول الخالق: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: 40]، والعفو هنا يجب أن يصلح لا يفسد، يقوِّم لا يهدم، يصفِّي ويطهر لا يشقي ويدمِّر، بمعنى أن العفو مقيَّد بالإصلاح، بحيث لا يتمادى المسيء في إساءته، وإلا فـ﴿ مَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: 41].

عندما تعفو عن أحَد يجب أن تصلحه فتبرِّئه مما هو فيه؛ أي: تعالجه، وتقرِّبه من ربِّه، وتحبِّبه في دينه، وتحتسب عند الله أجرَك، بعيدًا عن الغلِّ والحقد وحبِّ الانتقام، فذلك ليس من شيم الكبار! ((ما تظنون أنِّي فاعل بكم))؛ أخ كريم، وابن أخٍ كريم، ((اذهبوا فانتم الطلقاء)).

لكن الطائش المستبد المتعالي يجب أن يوقف عند حدِّه، وإلّا دمَّر البلاد والعِباد! بالحكمة أيضًا حتى لا يثمِر ضررًا أكثر.

كم مررتُ على بساتين العفو في نفوس أهل العفو، يبتغون بها أجرًا من الله، يجعلونها مزرعةً لآخرتهم! كم رأيتُ من أمثلة ماثلة تخشع لها الجبال الرَّاسيات، لكن هو توفيق من الله وفهم جيّد لدروس الحياة؛ ((ليس الشَّديد بالصُّرَعة، وإنَّما الذي يملِك نفسه عند الغضب))؛ صحيح.

ولذلك أحبُّ الدُّعاء في ليلة القدر؛ كما بلَّغ المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((اللهمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعف عنِّي)).

وهو صلى الله عليه وسلم في الطَّائف، ذهب يسدي لهم الخيرَ، ويقرِّبهم من ربِّهم، ويرشدهم الطَّريقَ، ويهديهم الحقَّ، لكنه لم يجد من صغارهم إلا هزءًا، ومن صبيانهم إلا قبحًا، ومن كبارهم إلَّا كفرًا، فعاد من الطَّائف جريحَ الجسد، دامي القدمين، ولم يجد في طريق عودته إلَّا ربًّا يلوذ به وإلهًا يضرع إليه: ((اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي، إن لم يكن بك غضَبٌ عليَّ فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيتَ، ولا حول ولا قوة إلَّا بك)).

ما أجمل أن يتجرَّد المؤمن من حوله وقوَّته إلى حول الله وقوته؛ في الشدَّة والرَّخاء، في السعادة والشقاء، في الصباح والمساء! تحرَّكَت السماء لهذه الملحمة، ونزل جبريل ومعه ملَك الجبال للانتقام من هؤلاء، بعد استئذان الذي وقع عليه الأذى: "إن أردتَ أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلتُ"، لكن هنا تَعلو قيمةُ العفو، وتتألَّق معاني العفو، وتبرق أنوار العفو: ((لا يا أخي يا جبريل، إنِّي أرجو اللهَ أن يخرِج من أصلابهم مَن يعبده ولا يشرك به شيئًا)).

وبالفعل خرج عمر، وخرج خالد، وخرج أبو عبيدة رضي الله عنهم، وغيرهم كُثر، ملؤوا الأرضَ عدلًا وإنصافًا وإخلاصًا!

العفو مقرون بالتواضع، وممزوج بالإخلاص، ومغلَّف بالنَّقاء والصفاء!

إنَّ الكريم إذا تمكَّن من أذًى جاءته أخلاقُ الكرام فأقلَعا

وترى اللئيمَ إذا تمكَّن من أذًى يَطغى فلا يُبقي لصلحٍ مَوضِعا

المستبدُّ والمتسلط - الذي يستهين بأرواح الناس ويزيد من أذى الخلق - لو عُفي عنه لزِدْناه استهانةً وأذًى، فهذا يجب أن نوقِفه، ويجب أن يدفع ثمنَ تجاوزه!

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: 2].

لو إنسان قصَّر وصنَع بإهماله مشكلةً كبيرة؛ مثلًا جاء مريض للإسعاف، والطبيب أهمَل في إسعافه فمات! هذا يجب أن يُحاسَب، وأن يَدفع ثمنَ إهماله وتأخيره، ويجب أن يُردع؛ لذا لا تقوم حياة منظَّمة من دون عقوبات، والحقيقة الإسلام فيه وازِع، ولكن لا يكتفى به، بل هناك رادِع؛ فالوازع داخلي، والرادِع خارجي، والمنهج الكامل يجب أن يعتمد على الوازع والرادع معًا.

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: 38]، يدافِع عن الذين آمنوا، وفي الوقت ذاته لا يحبُّ كلَّ خوَّان كَفور!

- نفس المؤمن عزيزة وقويَّة، ويستعين بالله، ويتحرَّك وفْق منهج الله؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: 39]، لا يردُّون الصَّاعَ صاعين، لا ينتقمون، لا يردون على البغي ببَغيٍ أقوي؛ كلا، وإنما ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40]، أو ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: 40].

فإذا غلب على ظنِّك أنَّ عفوك عن أخيك يُقرِّبه إلى الله تعالى يَنبغي أن تعفوَ عنه، وعندها أجْرك على الله.

حينما يصيبك عدوان خارجي، وبغيٌ وظُلم، وعدوان على مالِك، وكرامتك - هنا لماذا المؤمن لا يحقِد؟ لأنَّه موحِّد، ويرى أن قوَّة الله أقوى من كلِّ الناس، ويد الله فوق أيدي كلِّ الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: 17].

إذا وقف الناس أمام المعتدي موقفًا عنيفًا فالحياة تنتظِم عندئذ، أمَّا إن جاملناه وتركناه وأيَّدناه، انْتشَر الظلم، وعمَّت الفوضى، واختلط الحابل بالنَّابل؛ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: 39].

ومع ذلك: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: 43].

العلماء قالوا: قد يأتي القضاء والقدَر مباشرة، فيجِب أن تصبر، فلو أنَّ إنسانًا وقَع ابنه من الشُّرفة فوقع ميِّتًا! لا توجد جِهة تُطالب بِحقِّ ابنك منها، أمَّا لو أنَّ سائقًا دهس ابنه، فهذه مسألة أخرى، صَبَر على قضاء الله، وغفَر للذي أجرى الله القدَرَ على يده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: 43].

موقفان ننقلهما للقرَّاء الأعزَّاء، يؤخذ بهما في فضائل الأعمال، ومن باب الترغيب والترهيب:

أولًا: ورد عن أنس قال: بينما رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسٌ، إذ رأيناه ضحك، حتى بدَت ثناياه، فقال عمرُ: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمِّي؟ قال: ((رجُلان جثيا بين يدي ربِّ العزَّة عزَّ وجلَّ، فقال أحدهما: خُذ لي بمظلمتي من أخي، قال الله: أعط أخاك مظلمتَه، قال: يا رب، لم يبقَ من حسناتي شيءٌ، قال الله تعالى للطَّالب: كيف تصنعُ بأخيك، ولم يبقَ من حسناته شيءٌ؟ قال: يا رب، فيَحملُ من أوزاري))، ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبُكاء، ثُمَّ قال: ((إنَّ ذاك ليومٌ عظيمٌ، يحتاجُ فيه الناسُ إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله عزَّ وجل للطَّالب: ارفع بصَرك، فانظُر في الجنان، فيرفعُ رأسَه، فقال: أرى مدائنَ من فضَّةٍ، وقُصورًا من ذهبٍ مُكلَّلةً باللُّؤلؤ، لأيِّ نبيٍّ هذا؟ لأيِّ صدِّيقٍ هذا؟ لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال جل وعزَّ: هذا لِمن أعطاني الثَّمن، قال: يا رب، ومَن يمتلِك ثمنَ هذا؟ قال: أنت تملكُه، قال: بم؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب، فقد عفوتُ عنه، فيقولُ: خُذ بيد أخيك، وأدخله الجنَّةَ))، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((فاتَّقوا الله وأصلحُوا ذاتَ بينكم؛ فإنَّ الله يُصلحُ بين المُؤمنين يوم القيامة))؛ ذكره ابن كثير في التفسير.

ثانيًا: دخل أعرابي بستانًا ليستريح، أناخ ناقتَه ثمَّ نام قليلًا، قامت الناقة وأحدثَت فسادًا كبيرًا في البستان، جاء صاحب البستان فقتلَ النَّاقة، استيقظ الأعرابيُّ وقتل صاحبَ البستان، أقبل أولاد صاحب البستان وأمسكوا بالأعرابي للقصاص، طلب الأعرابي منهم أن يمهلوه حتى يرجِع إلى أولاده فيوصي لهم ثمَّ يعود، قالوا: ومَن يضمن لنا أنك ستعود، وبينما هم كذلك مرَّ بهم أبو هريرة رضي الله عنه وعلم أمرَهم ثم قال: أنا أضمن الرجل، ذهب الرجل إلى أهله بعد أن وعدهم بالعودة في يومٍ معلوم.

وجاء اليوم الذي انتظروه، وذهب أولاد القتيل إلى أبي هريرة فقالوا: كيف تضمن رجلًا لا تعرفه ولا تعرف بلده؟ قال أبو هريرة: حتى لا يُقال: إنَّ أهل المروءة قد ولَّوا، وبينما هم كذلك إذ ظهر الرجل في الأفق وأقبل حتى وقف بينهم، قالوا: لماذا عدتَ وقد كان بإمكانك أن تنجوَ بنفسك؟ قال: حتى لا يُقال: إن أصحاب الوفاء قد ولَّوا، عندها قال أولادُ القتيل: ونحن قد عفونا عنك، حتى لا يُقال: إنَّ أهل العفو قد ولَّوا.

اللهم أحيِ فينا مكارمَ الأخلاق، فأنت سبحانك ما بَعثتَ نبيَّك إلا ليتمِّم مكارم الأخلاق.

اللهم إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعف عنا
